

التوحيد: نشوء وارتقاء

اشرف بروجردی*

الملخص

عندما ندرس أسس العبودية في الإنسان وعلى صعيد كل الكائنات المتواجدة في عالم الكون، نستشرف إليها بوصف بالخالق والرب والقادر والواحد والأحد والذي لا يؤين بأين ولا يستوعبه ظرفاً الزمان والمكان حيث تواجهه خارج نطاقى البادرتين المؤمى إليهما وإنما يقضى حاجة الإنسان إلى عبودية إلهه، يكن على صلة مباشرة بطبيعة ارتباط المخلوق بالخالق أكثر من معرفته به وهذا بدوره يؤدي إلى اقتناع الإنسان بإله واحد. لم تتبلور فكرة التوحيد من حاجة المخلوق إلى عبودية الخالق إذ من الممكن أن يسلك المخلوق طريقاً يؤدي به إلى متاهات تكن نابعة عن استدراك قد يسلك سبيلاً خاطئاً وبناء على ذلك حين استعراض تاريخ الفكر الإنساني لبلورة معرفة المخلوق عن الخالق، نلاحظ تواجد الوجدانية والثنوية والتثليث وأحياناً عبادة الأصنام وحتى نفي الإله بالمرّة وبالتالي نفي العبودية.

الكلمات الرئيسية: التوحيد، الوثنية، نفي الألوهية، أصالة العقل، الدهرية، الثنوية، التثليث.

١. المقدمة

تعتبر العبودية ترجماناً لإقناع الإنسان بوجود إله خالق مقدر له الحكم يفعل ما يشاء ويقدر ما يريد. ولقد برزت معالم سلوك الإنسان بصور مختلفة منذ بدء الخليقة ومن حين تواجهه على وجه البسيطة حيث بادرت الأمم من خلال طقوسها بأداء مدى ولائها للمعبود وترسيم سبل العبودية. في خضم هذه التغييرات نلاحظ تواجد رسل دعوا إلى عبادة الرب وأسفروا عن

* عضو الهيئة العلمية بأكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية

تاريخ الوصول: ١٣٩٢/١/٢٠، تاريخ القبول: ١٣٩٢/٣/١٥

تمسکهم بعبودية الخالق و وحدانيته ومهدوا الدرب لعبادة إله لن يستوعبه الزمن ولم يحيطه المكان وتأتى طاعته عبر معرفة بنيت أسسها على ركائز الحقيقة ونادوا بشريعة تمهد الطريق لهذه المعرفة إذ تتجذر شعاب المعرفة فى سلوك تتصف بالطريقة حيث من الممكن أن يتعاطف الإنسان مع الحقيقة عبر الطريقة ولكن يبدو أنه من المستحيل مناقشة الحصول على الحقيقة عبر الشريعة وحدها.

عبارة أخرى لقد أكدت هذه النخبة المرسله بأن العبودية تتبلور عبر قبول شريعة تتجذر أسسها فى الطريقة إذ أن مسالك الطريقة لن تكن على منأى من الشريعة ولكن يبدو لنا أن هنالك تمايز طفيف بين مفهومى الشريعة والطريقة حيث من الممكن الوصول إلى الحقيقة عبر الطريقة ولكن من المستصعب الحصول على الحقيقة عبر الشريعة وحدها إذ أن الشريعة تسرد قبول طقوس رسمتها مسارات هذه الأخيرة.

يبدو أن الفلاح يحالف من استمسك بشريعة بنيت أسسها على مسالك الطريقة التى تتبلور من خلال المعرفة حيث أن الشريعة وحدها تكن عبارة عن معتقدات مجردة من معانيها لو لم تتبنى أسسها على ركائز من المعرفة التى تتبلور فى مسالك الطريقة والفلاح يحالف من استمسك بشريعة تبلورت على أسس معرفة تتجلى من خلال أضواء الطريقة.

بيد أن دعوة الأنبياء لعبودية الإله الواحد خرجت عن صراطها القويم عبر الزمن و إثر مناقشات الآخرين، و سيقت إلى الثنوية والشرك وعبادة الأصنام أحيانا؛ إذ أن الناس لم تكن لهم استيعابات متكافئة متساوية مع بعضها البعض لإستيعاب المعرفة بالكامل حيث أن هذه الاخيرة تكن فى تطور نحو تكامل مستمر تتجلى ثمارها فى عرفان يستوعبه الإنسان حسب طاقاته البشرية. نلاحظ أن العرفان يتبلور عند سالكى الطريقة اثر علم حضورى يتجلى من خلال إستبصار ومشاهدة يؤدىان إلى معرفة الخالق. والمعرفة بدورها تكن عبارة عن معرفة الآثار لا الذات الإلهية حيث أن معرفة ذات الألوهية تعتبر من المستحيل و تكن فوق طاقات الفكر البشرى. فى ضوء هذه المعرفة تبرز إلى الوجود معرفة الانسان بنفسه وهذا يؤدى إلى معرفة الخالق حيث أن: من عرف نفسه فقد عرف ربه. (نهج الفصاحة: حديث رقم ٥٤٩٤) فلنعلم أن الكون بأكمله فى جهد و عمل كى يكتسب الإنسان هذه المعرفة بحذافيرها. وبما أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى لديه طاقة فذة لإستيعاب سرّ الوجود وإماطة اللثام عن وجه الحقيقة فى لحظات عابرة ويستلزم سرد ذلك كراراّ تواجهه فى هذه اللحظات ألا وإن لكم فى الدهر نفحات، ألا فتعرضوا لها (المجلسى، ١٣٩٦: ٧ / ٢٢١).

إن الآنات المتحلية بحلاوة وجود الإنسان تتفاعل مع الكيان الإنسانى وتبلور كينونته بأحلى

اشرف بروجردی ۳۷

آیات الـکون و لن یعوضها الإنسان بأى بادرة أخرى حيث «إن أهل الجنة لا يتحسرون بشئ من الدنيا كتحسرتهم على ساعة مرتت من غير ذكر الله» (نهج الفصاحة: حديث رقم ۱۰۹۷) وعلینا أن نسأل هنا هل بلورة هذه اللحظات لها معطیات خاصة؟ وهل ترتبط بتواجد إرادة فذة؟ أو إنها نابعة عن مصدر عین فیاض لن يستوعبه الكل؟ والجواب هو أن هذه الحالة تبرز اثر معادلة الأخذ والعطاء وهى معادلة ذات طرفین؛ إذ أن الوجود الإنسانى يمتلك قدرة استيعاب الفيض الربوبى واكتساب العرفان والمعرفة شريطة أن يعرضها الإنسان للنفحات القدسية وهذه بدورها ترتبط بالارادة الإنسانية والتي تتبع من ذاتنا وفى هذه الحالة نلاحظ أن الذات الربوبى لن يهملنا ولو للحظة عابرة و لن يرمينا فى بوتقة النسيان بل يفتح لنا مصاريع العرفان والمعرفة بمفاتيح رحمته لأن «من أخلص لله أربعين صباحا، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» (غررالفصاحة، حديث رقم ۵۱۲۲).

نلاحظ إثر هذه الحقيقة الصارمة أن جهودنا وسلوكنا لن تذهب سدى بل تؤدى إلى الحقيقة «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد» (فصلت: ۵۳). والمراد من الذكر الحكيم هو أن الإنسان يمتلك طاقة استيعاب حقيقة العالم بحذافيرها لكن ظاهرة كهذه تتطلب سعى الإنسان و أى سر يكمن فى هذا الأخذ والعطاء والذى قل طالبيه وساعيه على حد سواء وقل الذين يتفكرون فى مؤلفات العالم ومكوناته بالرغم من تعاطيهم المستمر مع معطيات وحقائق العالم الذى يحيطهم ولو أراد الإنسان أن يستوعب مكونات الخليفة فلينظر أولا إلى الآفاق ثم يتفكر فى الخلق ومن بعده يستبصر فى نفسه كى يتقرب إلى الحقيقة البحتة ويستسقى من فكره الذى يضى كيانه ويجلى روحه فالفكر مستوعب من العقل والعقل يهدى إلى عبودية الرحمن حيث أن «العقل ما عبد به الرحمان واكتسب به الجنان» (غرر الفصاحة: حديث رقم ۷). ثم بعد ذلك يعرض الإنسان مكتسباته المؤاتية كى يستمد الخلق منها ويسترشد بها ويتبع أحسن القول وينقى خيره ما قيل بهذا الصدد «فبشر عبأدى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» (الزمر: ۱۷، ۱۸).

على هذا الأساس نلاحظ مداولة التوجه إلى العقلانية فى الأوساط البشرية حيث أن ذوى العقول والنخبة المتفكرة يبادرون بتنظيم سلوكهم على ضوء مكتسبات العقل؛ فالفكر الذى ينبع من المعرفة يستوعب الحقيقة وترافقه المحبة والحب لأن المعرفة تعتبر بداية العشق ومدخلا اليه.

نحاول فى بحثنا هذا أن نتطرق إلى كيفية نشوء التوحيد وعبادة الإله الواحد منذ فجر الخليفة بغية ترسيم خارطة الطريق إلى الوجدانية.

٢. هل التوحيد مضمّر في الذات الإنسانية و فطرته؟

عندما نتصفح المستندات المكتوبة قبل ميلاد المسيح عليه السلام بألفى عام نلاحظ بالرغم من تواجد مظاهر الوثنية في الآثار الغير المكتوبة لتلكم الأمم كتقديم القرابين لألهتهم أو اختصاص الهدايا والتذر لهم أو طلب الغفران ورفع حوائجهم منهم أن المخطوطات المتبقية من هؤلاء الأقسام تشيد إلى عبودية الرب الجليل و الاعتراف بوحدانية الأله. فالمستندات المتبقية من أيام فراعنة مصر أى ألفين عام قبل ميلاد المسيح عليه السلام تنوّه إلى: «إن الله هو الواحد الأبدى، أنه أبدى غير محدود، وهو يدوم إلى أبد الدهر وقد دام طول أزمان لا تحصى وسوف يدوم طول الأبدية كلها» (الصباغ، الأحناف، د.ت، ص ٣١). ونلاحظ نفس المفهوم مذكور فى آى الذكر الحكيم: «ولئن سئلتهم من خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله» (الزمر: ٣٨). وهكذا نلاحظ نفس المفهوم مذكوراً فى سورة المؤمنون فى آيتى رقم ٨٤ و ٨٩ وكذلك فى الآية التاسعة من سورة الزخرف و التى تشير إلى الكون وخلقته ومكونات الخليقة حينما تطرح الآية أجزاء الخليقة وتساءل المشركين والكفار من الذى خلقهن يقولون الله. ومفهوم كل ذلك أن العبودية تكوّن جزءاً من فطرة الإنسان وتكون متساوية لدى البشر وثانياً أن الاعتراف بوجود إله واحد يكون مضمراً عند البشرية جمعاء «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين» (الاعراف: ١٧٢). فيكون بذلك نتاج هذه المعطيات الدينية أن نعتبر البشرية بأجمعها عباد الله وموحديه بل يمكننا القطع بأن ما ظهر من الشرك و الإلحاد تكن نابعة عن مسار خالفت الفطرة البشرية وذهبت إلى ما هو تقيض من الوحدانية وبرزت إثر ما تبنتها البشرية حين سلكت دروبا شككت فى التوحيد وتبنت الوثنية بعيد ما تنأت عن التوحيد.

وهكذا نلاحظ أن الإنسان قد أقرّ بوحدانية الإله منذ تواجده على وجه البسيطة من منطلق فطرته. إذا علينا أن نتساءل منذ أى زمن برزت فكرة الشرك وتجلت معالم الوثنية؟ وعلى أية معطيات خالف الانسان بواد فطرته؟ وكيف يمكننا اجابة هذا السؤال بأن منذ أى وقت ظهر الخلاف فى الفكر البشرى كى يتنأى عن الوحدانية والتوحيد ويجعل للاله شريك؟ على هذه الوتيرة نلاحظ أن الإنسان عند نشوئه وتعلقه بحياة بسيطة كان يتمسك بالوحدانية فى قرارة نفسه فكيف تحول إلى عبادة الأصنام وبادر بنفى الإله الواحد الأحد؟ وفى ضوء أية معطيات برزت الوثنية فى معتقداته؟ و ظهر الشرك فى بوتقة وجوده؟ وكيف يمكننا الإجابة على هذا السؤال الكامن فى وجودنا بأن منذ أى وقت برز الخلاف فى الاعتقاد بأن الله هو الواحد الأحد الفرد و توجهت البشرية نحو الشرك؟ وهل يمكن القول بأن ظهور الرسل فى حياة الإنسان ودعوتهم إلى

التوحيد من خلال المعرفة وعلى أساس التنوير ونفى ما عداه كى تتكامل معرفتهم عن الخالق والمخلوق وتستكمل الصورة عندهم بدوره أصبح مصدر نقاش وتضارب الآراء؟ أو إن فهم الإنسان واستيعابه من فكرة الألوهية هو الذى دفع به إلى الإختلاف فى كيفية عبوديته حيث ادعى بضرورة رؤية الرب كى يعبده؟ أو حسب بعض الآراء والرؤى برز الإختلاف على ركييزة إختلاف مصالح الخلق؟

يعتقد العلامة السيد الطباطبائى أن الإختلافات تتصنف وتكون على ضربين فمنها ما هو نابع عن الطغيان والظلم اللذان تتجذران فى ظاهرة الدين وفى نفس الوقت يمكن أن يكون متجذراً فى الفطرة والغرائز البشرية والإختلاف الثانى الذى يتشعب من أمور دنيوية أدى إلى التشريع ووضع القوانين الدينية حيث بادر الرب إلى تسوية الإختلافات البشرية بواسطة الشريعة ونور لهم الدرب المستقيم والصرط القويم إذ يهدى لصرطه المستقيم أياً يريد ومن يشاء (الطباطبائى، ١٣٦٣: ٣/ ٢١٤). وهل يمكن القول أن ارتقاء الوعى عند البشر أدى إلى نشوب الإختلاف بينهم؟ لعل الآية القرآنية الكريمة ترشدنا إلى هذه الفكرة حيث: كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ بِالْحَقِّ بآيَاتِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (البقرة: ٢١٣). وكذلك فى سورة البينة حيث تسرد الآية: وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (البينة: ٤). وبذلك نلاحظ أن البيئنة ظهرت للذين نزل الكتاب عليهم وبعد نزوله برز الإختلاف بينهم. ونحن نتساءل هل البيئنة التى كانت فصل الخطاب هى التى أدت إلى نشوب الإختلافات؟ فى حين أن البيئنة تعتبر الدليل الواضح فما هى علة اعتبارها منطلقاً للإختلاف؟ يرى المفسرون أن هذه الحالة تتجذر فى الحالات النفسية وخاصة الحسد ومن الصعب حصول دليل قرآنى لهذه الحالة إذ لا يمكن استنباطها من آى الذكر الحكيم بل ينوء المصحف الكريم بشكل عام إلى نشوب الإختلاف أثر ظهور هذه الحالات وعلى أى حال فإن ارتقاء الفهم البشرى وازدياد المعرفة لدى الإنسان يؤدى بشكل عام إلى استنباطات مختلفة واستدراكات متضاربة عن مفهوم الدين.

نلاحظ أن الله يشيد القول أن أول إختلاف نشب فى البشرية ارتفع اثر التمسك بالدين حيث تمكن هذا من تقديم حلول لهذا الإختلاف وفى نفس الوقت ينوء بأن هذه الآلية أصبحت رويداً رويداً منطلقاً للإختلافات أخرى ووجدت أرضيتها فى الدين نفسه. على أن حاملى هذه الإختلافات كانوا هم دعاة الدين وحملته فأخذتهم الحمية إلى متاهات نشبت من نفسانياتهم التى كانت تدعوهم إلى الظلم والطغيان وهذا المفهوم يستسقى من آى الذكر

الحكيم: «وما كان الناس إلا أمةً واحدةً فاختلَفُوا ولولا كلمه سبقت من ربك لفضى بينهم فيما فيه يختلفون» (يونس: ١٩) وكذلك من الآية: «وما تفرقوا إلا من بعد ما جائتهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لفضى بينهم وإن الذين أورثوا الكتاب من بعد هم لفي شك منه مريب» (الشورى: ١٤). ولعل ظهور الأنبياء بين الناس حصل بغية تمهيد الدرب للوصول الى الحقيقة وتنوير الفكر البشرى لتطوير سبل الإنارة والإطاحة بالخلاف المتواجد لدى البشرية جمعاء. وهذا ما يعبر عنه جان ناس حين يقول: وهب الدين فى صورته البدائية للإنسان طاقة استدراك معالم الطبيعة والتعرف على ما حوله من القوى الطبيعية والنفوس البشرية البائدة وأرواحهم وكذلك الطاقة الكامنة فى وجوده كى يسلك دربا متميزا يودى إلى تأسيس منظومة اجتماعية عبر مسالك خاصة. وبعد مضى زمن على تلكم البادرة تمكن الفكر البشرى أن يتطور وتعرف الإنسان على علل الحوادث الطبيعية ونتائج تتابع الظواهر من خلال التجارب وتبلورت علاقة الإنسان بما يحيطه فى نطاق واسع وتعاطف الفكر البشرى مع ناشئة «أرباب الطبيعة» و «كبار الالهة» واثر هذا السلوك إلى فكرة الإله الواحد (ناس، ١٣٥٤: ٥).

نلاحظ من جهة ثانية أن الله يرى هذا الأمر شيئاً متأتياً مع الفطرة الإنسانية حيث معرفة الرب تتبع من صميم الوجود الذى هو صنع الرب: «فأقم وجهك لدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (الروم: ٣٠). تدل مفاد هذه الآية الكريمة على الجمع بين الفطرة والجهل حيث ترشدنا من جانب إلى أن الدين يضم فى الفطرة البشرية ومن جانب آخر تشير إلى أن أكثر الناس لا يعلمون ولا يمكن الجمع بين هاتين الظاهرتين فكيف الفطرة والجهل؟ إذا يمكن القول بأن نشوء الاختلاف فى الدين ومجانبة الطريق القويم والهدى المستقيم هو نتاج جور العلماء الذين كانوا يحرفون الكلم عن مواضعه و يبادرون بتأويل كتاب الله (الطباطبائى، ١٣٦٣: ٢ / ٣٣٤). إذاً فالخلاف فى الدين لن تتبع من الفطرة لأن الدين يكون أمراً فطرياً و الفطرة لن تتواءم مع الخلاف ومن جانب آخر فإن الفكر وكيفيته يبلور لدى الإنسان طاقة محدودة يصدنا عن تبديل نوعية سرد أفكارنا وتغييره بأشكال أخرى حسب تعبير ميشال فوكو الذى يقول: «محاكاة الفكر فى الصمت هو فى الواقع ضرب آخر من الفكر لن يتطرق له الإنسان قط» (فوكو، ١٣٨٢: ٢٨). إلا إذا كان مسار الفكر مهدياً نحو استدراك الحقيقة واكتساب معرفة الكون وخالقه و لذلك نلاحظ أن المصحف الكريم يضع العلماء فى عداد الألوهيين والمتعرفين الحقيقيين على وجود الخالق: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» (فاطر: ٢٨).

٣. تأريخ الألوهية و التوحيد

لا تكون لدينا صورة واضحة عن فجر الألوهية والتوحيد ولكن توجد إيماءات عن عبادة الرب فى كل الأزمنة والعصور. دعونا نفترض أن الإنسان فى بداية الخليقة من منطلق الفطرة كان موحداً لكن تبدلات الأحوال أدت به إلى أن يصبح مشركاً أو وثنياً إثر التفكير فى معطيات الكون وعدم استطاعته من تقديم حلول مناسبة الأسئلة كانت أن تطرح نفسها عليه حول مستجدات الخليقة ولأن مدى استدراك الإنسان كانت تشوبه النقائص فالأجوبة ظهرت غير متكاملة وبذلك كثرت الفروض وزادت فى الطين بلّة إذ أن الأجوبة أتت على مقدار استيعاب الإنسان عمّا يحيط به وإثر ذلك نمت وتطورت الفروض بهذا الصدد. على هذا الأساس إن إحدى الفرضيات البشرية حول خالق الكون جاءت بتجسيد إله يكون ملموساً للبشرية تدركه الناس وتقابله وجهاً بوجه وبالتالى جعلت لمظاهر الكون آلهة مما أدى إلى تجسيد تلك المظاهر فى أوثان جسّدت الألوهية فى نماذج شتى عبر القرون والأعصار، من الوحدانية إلى عبادة آلهة متفرقة وحتى سلوك الدرب نحو تماثيل تجسد الإله و تبرز أن الممثل للخير لن يستطع أن يشيد بالشر وعلى أساس ذلك فإن ربّ الأرباب قد وضع تدبير الأمور حسب معطياتها فى يد مقدرة إحدى الآلهة كى يدبّر أمور الخليقة وبعض هذه الأرباب تخلق «الشرور» أحياناً كالجنّ ولذلك يجب عبادة الآلهة المنسوبة إلى تلك النماذج كى تصان الأنفس البشرية منها وحسب ذلك وجدت آلهة للشرّ وآلهة للخير.

من جانب آخر نلاحظ أن الآلهة المتواجدة على هذا النهج تفتقر إلى كونها خالقاً للكون لأن الربوبية قد تقوم بتدبير أمور الكون ولكن تختلف عن كونه خالقاً للبيئة ونلاحظ أن كل من كان ينسب تدبير أمر الكون إلى آلهتهم لم يتمكن من انتساب الخلق إليها.

من الملاحظ أن أهل مصر القديمة وذلك من خلال المستندات والمخطوطات المتبقية منهم يشيرون إلى أن ألوهية أرباب تتميز بهذه الميزة الخاصة؛ وقد تشير الرسوم المتبقية من تلك الحقبة إلى أشكال ملموسة ومحسوسة متميزة عن بعضها البعض (بى وارىز، ١٣٨٥: ٥٠٩). ويرى البعض أن أهل مصر القديمة كانوا يعتقدون بتعدد الآلهة فى فترات من تاريخهم وقد تداولت فكرة تعدد الآلهة من مصر القديمة فى تاريخ الفكر البشرى خاصة فى قرى وأرياف هذه البقعة من الأرض والتي أصبحت منطلقاً لتكوين المدينة فى كل من الرافدين ومصر ويرجع زمن هذه البادرة إلى الألفية الرابعة قبل ميلاد المسيح عليه السلام (بمفورد باركر، ١٣٨٠: ٥٩).

تتواجد نظرية أخرى حول هذه الظاهرة تشير إلى أن «الإنسان بادر فى بداية أمره إلى عبادة ربّ الكون باعتباره خالق البسيطة وأمر الوجود والخليقة وفعال السماء و الأرض». لم يظهر هذا

الإله فى الرسوم المتبقية من تلكم الحقب ولم يمتلك الكهّان والرهبان لتقديم الخدمة له وكان شأنه أولى من أن يعبد بواسطة الإنسان و ذوى النفوس ورويداً ورويداً غاب هذا الإله عن النفوس البشرية و وضع فى منأى عن تناول الناس بحيث تصور الإنسان أنه لا حاجة إليه وأخيراً قيل عنه بأنه غاب عن الساحة البشرية (آرمسترانج، ١٣٨٥: ١٩). لذلك نجد فى التاريخ أرباب متفرقة يتناول كل منهم جانباً من الخليفة لتدبير أموره لا خلقه وتكوينه. فى ضوء ذلك نلاحظ أن الصابئة و البراهمة و البوذيين بادروا بتجزئة شؤون العالم إلى قطاعات متباينة فجعلوا لكل قطاع الهاً فظهر إله السماء وإله الأرض وإله الحيوان وإله النبات وإله البحار وأصبحوا يعبدون هذه الآلهة بدلاً من الرب الواحد الأحد و يستشفعون بهذه الآلهة للتقرب من إله الكون وبعيد ذلك بادروا بصنع أوثان لهذه الآلهة تظهر ميزات آلهتهم (الطباطبائى، ١٣٦٣: ٢٩ / ٨٩). من الممكن ملاحظة نفس البادرة عند المصريين من خلال الرسوم المتبقية منهم حيث تجسيد الآلهة بأشكال متنوعة تتمايز عن بعضها البعض. عند دراسة تاريخ الأديان و المعتقدات نلاحظ أن الآثار المتبقية من عصر الحجر وما قبله مستندات تفيد إلى صورة مرآة منقوشة ومحفورة على الرخام و يرى دارسو معالم التاريخ أن الصورة المتبقية من تلكم العصور آن لم تشر إلى امرأة خاصة وإنما تظهر معالم الأمومة التى تتلخص فى الأوثنة (بى وارىز، ١٣٨٥: ٥٠٨).

وأما الآريون لم يبادروا بتقديم القرابين لمعالم الشر والشياطين و لم تكن لديهم طقوس لإزاحة سيئاتهم؟ بل كانوا يقومون بتقديم القران لمعالم الخير لاستجلاب رضاهم و تبجيلهم بغية اكتساب رضاهم (الرضى، ١٣٤٣: ١١٠). فمن هذا المنطلق بدت ظاهرة بروز الأوثان لمعالم الخير والشر على السواء وهذه الظاهرة حسب اعتقادهم لن تكن منافياً مع الاعتقاد بوجود إله واحد وإثر ذلك بدت ظاهرة الثنوية وبالتالي برزت بادرة الشرك حيث الأرباب بدلاً من «الرب» وحيث تقسيم مهام العالم بينهم لكل منهم مسؤولية إدارة جزء من العالم و كل هذه الآلهة تبادل عبادة الرب الواحد وكذلك الإنسان لا مناص له من عبادة الرب الواحد إنما يستشفع بهذه الآلهة كى تقربه من رب الأرباب.

إن سلوك هذا الدرب الوعر أدى إلى ظهور الوثنية فى ثنايا التاريخ حيث عبادة آلهة متفرقة أخذت منأى الوثنية إذ أن الخير والشر تعتبران صورة عامة عن كل ما هو مستحسن وغير مستحسن؛ لكن العلامة الجعفرى يعتقد أن تاريخ الفكر البشرى لن يتواءم مع الثنوية يوماً ما فى خضم المعتقدات حيث أن الثنوية الحقيقية هى أن نعتقد بوجود إلهين لكل منهما ذات يوصف بواجب الوجود و جامع صفات الخلق و الربوبية لا حد ولا نهاية لكليهما (جعفرى، ١٣٦٢: ٢ / ٤٨). و يشير التاريخ أن «مانى» مؤسس الثنوية الذى يراه البعض رسولاً والذى استمرت ديانتته

لألف عام، أن في العالم مظاهر الخير والشر على السواء وهذا ابن النديم هكذا يوصف المانوية حسب تعبيره: «أن منطلق العالم قام على أساس كونين احدهما تجلى في النور والآخر برز من الظلام وكانا منفصلين عن بعضهما البعض» (تقى زاده، ١٣٨٢: ١٧١). وعلى سبيل المثال إن اعتقاد العيلاميين كانت تتبنى على ركائز عبادة مظاهر الكون والطبيعة وتجلى آلهتهم فى أرباب وفور النعم (الرضى، ١٣٤٣: ٣٥). وكذلك تبرز فى بعض الشرائح الإنسانية عبادة الشمس وهذا ما تدل عليه الرسوم المتبقية على الأواني الخزفية المنتسبة إلى تلكم العصور و الملفت للنظر والانتباه أن حياة قاطنى الفلات كانت تسير على درب الاعتقاد برب واحد فكانوا يعتقدون أن الخليفة تكن حبلى بالاحداث ولن تلد جديداً وعلى خلاف اعتقاد أهل مصر الذين كانوا يعتقدون بذكورية مصدر الحياة فإن قاطنى الرافدين جعلوا هذا المصدر منتسبا للأوثنة (المصدر نفسه: ٤٠).

وكذلك نلاحظ أن الأقوام التى تبعتهم كالسومريين والآثوريين والبابليين تبنا الاعتقاد بتعدد الآلهة وجعلوهم ضمن مراتب كانت ترتبط بالخصب والأجزاء المثمرة من العالم (بى وارىز، ١٣٨٥: ٤٠). ومن خلال المخطوطات المتبقية من أقوام مصر وبابل وأرض الرافدين فى الألفية الرابعة قبل مولد المسيح عليه السلام تشيد إلى تدوال تعدد الآلهة فى هذه المناطق من المعمورة (المصدر نفسه: ٥٠٦). فالتوجهات المادية كانت متواجدة منذ أقدم العصور والأزمنة عبر التاريخ التى كانت تنسب مصدر العالم للمعالم المادية وهكذا سائرت هذه التوجهات مع المنطلقات الفكرية القائلة بماوراء الطبيعة وتبنت الألوهية وعبادة الرب (مطهرى، ١٣٥٠: ١٢). لكن المنطلقات الآتفة الذكر لن تتبدل إلى مدارس فكر ولو أمعنا النظر فى خلفية الفكر المادى لن نرى لهذا المنطلق سابقة مفعمة بالفكر المبرمج بل تظهر بصورة شذوات عبر الزمن لن تلتفت الانتباه بصورة موسعة ومن جانب آخر فالتوجه والتمتع فى فكرة الألوهية و الوحدانية وعبادة الرب لها تاريخ عريق ترجع بداياته إلى زمن أنبياء كنوح و ابراهيم عليهما السلام حيث اشادتهما بالتوحيد وحتى فى عصر أنبياء كموسى وعيسى سلام الله عليهما نلاحظ مداولة عبادة الرب على مر العصور والأزمنة بصور مختلفة وكما نوهنا سابقاً أن تواجد فكرة التوحيد وعبادة الإله الواحد كان متداولاً عبر العصور البائدة. من هذا المنطلق فلو أردنا أن نستعرض مسار الفكر حول التوحيد ومعرفة الرب وخالق الكون نلاحظ فى الوقت نفسه محطاً أقدام الفكر البشرى فى تطوير معرفة الإنسان بما يحيطه.

وقبل الاستدراج فى هذا البحث علينا أن نلاحظ أن العبودية تواجدت منذ ابتداء الخليفة وقبل خلق الإنسان. يشير الله إلى هذه النقطة الهامة فى المصحف المرتل بالآية الكريمة: «يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (الجمعه: ١). حيث أن الإله يشيد

بالفطرة في مجال معرفة الخليقة والكون حيث توجه الإنسان إلى التوحيد والوحدانية من منطلق الفطرة؛ لكن تطور الفكر البشري أدى إلى ظهور المدارس المختلفة وبعبارة أخرى لو أننا أردنا استيعاب مراحل تطوير الفكر البشري سوف نواجه مراحل هذا التطور حسب ما يلي:

١. العهد العتيق؛
٢. القرون الوسطى؛
٣. عصر الأنتيثق؛
٤. عهد الفكر (القرن السابع عشر)؛
٥. عصر التنوير (القرن الثامن عشر)؛
٦. عصر الأمنيات و الفكر المادى (القرن التاسع عشر)؛
٧. العهد الحديث؛
٨. عصرنا (ويكى بديا، الموسوعة الحرة).

حيث برزت وتواجدت المدارس الفلسفية لدراسة الذات الالهوية خلال هذه العصور والعهود لكن الخوض في هذه البوادر والظواهر تستلزم بحثاً مشبعاً يقع خارج نطاق ما نحن فيه حيث أن الدراسات المؤمى إليها تقع بعيداً عن متناول الأيادى البشرية.

من الممكن أن نعتبر الفكر المادى ونفى الذات الإلهى مساراً لأجتياز ما كانت تشوب الذهن الإنسانى و بالرغم من كل ذلك فإنّ الرؤى المذكورة لن تكون مدرسة خاصة بل نضجت على أساس فكرة أو رؤية بيد أنه من المحتمل اعتبار نضوج هذه الرؤى منذ اندلاع عصر التحديث حيث برز إلى الوجود مدرسة تناولت رؤية جديدة إلى الخليقة و الخالق. المراد من المدرسة الفكرية هو تحديد اطار فكرى مرتكز على اصول مرتسمة بغية الوصول الى هدف معين يتجلى فى تطوير الفكر. و من المحتّم أنّ هذه المدرسة لها مؤسس استفاد من تجارب الماضين كى يضع أسسها. فى ضوء ذلك لن تكن المدرسة خليقة لحظة عابرة و لن يكن مؤسسها من يتابع هذا النمط من الفكر. انما دراستنا تتناول نمطاً معيناً من الفكر يمكن انتسابه الى عصر التنوير. ظهر تفكيك المدارس الفكرية حينما تطرق الذهن إلى أنّ هل المادة تكون سابقة للمعنى؟ وهل أصل الشى يسبق فكرته؟ فالذين يعطون الأولوية للمادة ويعتبرونها هى الموجدة للمعنى ويعدّون التعيين منطلقاً للذهن يعدّون من الماديين والماترياليين والفرقة التى تتبنّى العكس أى ترى أنّ المعنى هو مُنشئ المادة هم المتأفيزيقيون والمتمسكون بالمذاهب السماوية (مطهرى، ٣٦٩: ٤٤٣). نلاحظ أنّ عدداً من المصنّفين يسمّون الفرقتين بالطبيعيين وماوراء الطبيعيين.

فكلما يُمْتُ بصلّة الى الطبيعة وكل مدرسة تعتبر الطبيعة مصدراً للخليقة هي الماتريالية والتي تأخذ تسميات متنوّعة خرجت منها تأسيس مدارس الفكر.

فإحدى هذه المدارس هي مدرسة اللادريون (Agnosticism) حيث واضعها توماس هاكسلى و روبرت أنجروزل والخيام و أبو العلاء المعرى ومدرسة اللاألوهية (Atheism) التي شيدها برتراندراسل ومدرسة نفى الإله واستنكار الرب Non theists والتي وضع أساسها مايكل مارتين وأخيراً المدرسة التي تعرف بمخالفة الإله ومواجهة الرب Antitheism على أيدي مفكرها كريستوفر هجينز وريشارد داوكينز.

اللاأدرية (Agnosticism) هي مدرسة فلسفية تعالج الصحيح والخطأ فى شؤون ماوراء الطبيعة كالألهيات و الحياة بعد الموت و وجود الخالق والمعالم الروحية والروحانية و تستشكك وتشكك فى حقيقة العالم و تتبنى عدم مداولة معرفة حقائق الوجود وترى هذه المدرسة أنّ معرفة جزء أو كل حقيقة الوجود بأكملها أمر مستصعب النّيل ونلاحظ أنّ كانت و هيوم قد وضعا هذه الفلسفة (ويكى بيديا، الموسوعة الحرة).

اللاألوهية (Atheism) هي المدرسة التي تعتقد بإنكار وجود الآلهة فهذه مدرسة تنكر وجود الخالق بصورة عامة. نلاحظ أنّ ٢/٣٪ من النفوس البشرية تذهب على هذا النمط من الفكر بينما يقارب نسبة الذين يصفون أنفسهم بعدم اتّباع دين ما، ما يقارب ١/٩٪ من النفوس البشرية (ويكى بيديا، الموسوعة الحرة).

استنكار الرب (Non Theists) أى عدم الرضوخ للخالق يطلق على كل من يعتقد بعدم وجود خالق للكون و كذلك على الذين لا يعيرون اهتماماً بوجوده وعدمه.

مخالفة الإله (Antitheism) ضرب من رؤية الكون تتبلور على أساس التشكيك فى وجود الخالق وينفى تواجده ويطيح بكل الأفكار المتبنية إثبات وجود الخالق و يشير إلى أنّ فكرة وجود الخالق تكن ذات طبيعة تخريبية وعلى ذلك يجب نفيه بالمرّة وممن تبنى هذه الفكرة هما كريستوفر هجينز، وريشارد داوكينز (المصدر نفسه).

إنّ ما يتعلق بقبول الإله والإعتقاد بماوراء الطبيعة يفيد إلى وجود ذات منتم إلى الإله الواحد الذى استوعبته البشرية من خلال ماوراء الطبيعة يشبه ما أشار إليه أفلاطون فى «مُثله» و هي نظرية تستوعب كل المظاهر المادية للكون. فالوجود الذى يتجلى فى مُثُل أفلاطون يحتوى على أربعة ميّزات هي: الجامعية، الوحدة، الكمال و الثبات (فشاهى، ١٣٥٤: ٢٢).

لكن إله أرسطاطاليس يكون مجرداً من المادة بل يحتوى على الفكر (الذهنية) والعينية لكن لم يكن أزلئياً بل يعتبر العامل المحرّك للطبيعة حيث أنّ قوة تحريكه تكن نابعة عن

ذاته فإنه أرسطاطاليس هو الغاية القصوى لكل الخليقة والإنسان يكن أقرب موجود إليه (المصدر نفسه: ٣١).

وإله أصحاب مدرسة الفكر والعقل كأبي بكر محمد بن زكريا الرازي والذي ينفى نمط ماوراء الطبيعة التي وضعها أرسطاطاليس يرى الخليقة نتاج خالق الكون حيث يشير هو الآخر إلى المادة لن تصدر عن وجود روحاني بحت وهو يرى بأن العقل والفلسفة هم العاملان الأساس لمعرفة الكون حيث يقول يشيد: «أنَّ العقل هو العامل الوحيد الذي يرشدنا إلى الحقيقة البحتة» (آرستراخ، ١٣٨٥: ٢٧٥).

إنَّ الرؤية الوحيدة التي ترشدنا إلى معرفة الذات الإلهي هي الرؤية التي يتبناها الفكر والعقل هو العامل الوحيد الذي يرشدنا إلى الطريق القويم الذي يرسمه الدين.

وأخيراً فإن أصحاب العرفان والمعرفة تمكنوا من الوصول إلى الحقيقة عبر الشهود التوحيدي فتبنوا عرفان الخالق على أساسه. فالتجربة العرفانية تمتلك ميزات خاصة تشترك فيها كافة الديانات السماوية فهذا النمط من الفكر والرؤية يتركز على رحلة نفسانية تقع خارج نطاق المشهودات الخارجية وحتى النصارى أى المسيحيون الذين يتبنون فكرة التثليث والتجسيد وبذلك يقعون فى منأى عن الفكر التوحيدي يمتلكون تجربة أو تجارب عرفانية لها مشتركات مع ما يتبناه اليهود والمسلمون (المصدر نفسه: ٣٥٠). وفى هذا الصخب نلاحظ أن إله على عليه السلام يحمل صبغة العرفان والعقل والحقيقة حيث يرسمه فى خطبته كما يلي:

أول الدين معرفته وكَمالُ معرفته التصديقُ به وكَمالُ التصديقُ به توحيدُهُ، وكَمالُ توحيدِهِ الإخلاصُ لَهُ، وكَمالُ الإخلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفَاتِ عَنْهُ، لِشَهَادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّهَا غَيْرُ الْمُوصُوفِ، وَشَهَادَةِ كُلِّ مُوصُوفٍ أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ، فَمَنْ وَصَفَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ فَقَدْ قَرَنَهُ وَمَنْ قَرَنَهُ فَقَدْ تَنَاهَى، وَمَنْ تَنَاهَى فَقَدْ جَزَأَهُ وَمَنْ جَزَأَهُ فَقَدْ جَهَلَهُ وَمَنْ جَهَلَهُ فَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ وَمَنْ أَشَارَ إِلَيْهِ فَقَدْ حَدَّهُ وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ وَمَنْ قَالَ «فِيمَ» فَقَدْ ضَمَّنَهُ وَمَنْ قَالَ «عَلَامٌ» فَقَدْ أَخْلَى مِنْهُ. كَائِنْ لَا عَنْ حَدَثٍ مُوجُودٍ لِأَنَّ عَدَمَ مَعَ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُقَارَنَةِ وَغَيْرُ كُلِّ شَيْءٍ لَا بِمُزَايَلَةِ فَاعِلٌ لَا بِمَعْنَى الْحَرَكَاتِ وَالآلَةُ بِصِيرٍ إِذْ لَا مَنظُورٌ إِلَيْهِ مِنْ خَلْقِهِ، مُتَّوَجِّدٌ إِذْ لَا سَكَنٌ يَسْتَأْنَسُ بِهِ وَلَا يَسْتَوْجِسُّ لِفَقْدِهِ (نهج/البلاغته: الخطبة الاولى).

يمكن اعتبار كلام على فصل الخطاب بهذا الشأن لمعرفة الخالق. لكننا لن تتمكن من وضع حد للفكر البشرى إذ يذهب هذا الآخر لدربه كى يستمر ويديم التاريخ فى مساره نحو معرفة خالق الكون بالرغم من وجود تحديات للفكر الألوهي حيث كان ولا يزال يجرب التواجد لكن الرؤية المتواجدة لدى الإنسان تدل على تطوير الفكر الإلهي يوماً بعد يوم.

٤. النتيجة

١. حاجة الإنسان إلى عبودية الرب تكون ظاهرة نابعة من الفطرة البشرية حيث المسار التكاملى لهذه الظاهرة واجتياز البشر مراحل متفاوتة عبر التاريخ.
٢. بالرغم من ظهور الأنبياء لتبيين التوحيد فى كل المجالات لا زلنا نواجه تحدياً خطيراً وهو جدل الموحدين و المشركين فى أن الرؤية الدينية تستوعب جميع المجالات أم لا؟
٣. يجب على الفلاسفة والمفكرين أن يسلكوا درب معرفة الحقيقة إثر نزول شأن التمسك بالدين وهذه بادرة تعانى منها الاجتماعات البشرية حين أن ظاهرة فطرة الدين لدى الوجود الإنسانى هى ظاهرة تتجلى لدى البشرية جمعاء وتتفى الصفح عن الدين فى الوجود البشرى حيث الحاجة إلى وجود عال له مرتبة فوق البشر.
٤. استكمال معرفة الرب وعبادته يرجع إلى قصة تواجد الإنسان على وجه البسيطة فاستيعاب الخلق بوجود الخالق كان يلوح فى سماء الفكر منذ فجر تواجد الخليفة ولكن بما أن الإعتقاد بالغيب يكون بحاجة إلى استدراك عميق للعالم وشهوده وتبنى علم حضورى لا يمكننا أن نستسقيه عن طريق علم حصولى حيث أن هذا يمكنه إثبات الخالق دون التمكن من الوصول إلى يقين نكن بحاجة إليه.
٥. البشرية جمعاء قد سلكت درباً وعرأ للوصول الى خالق قادر مدبر واحد أحد رب الجميع فالإله يكون إلهاً ورباً توصلت البشرية إلى حقيقته عبر دروب هداهم الخالق إليها. فهذا المسلك يرشدنا إلى عبودية الرب، والأمر كذلك عند تبيننا للتوحيد ومعرفة الإله الواحد الفرد.

المصادر

القرآن المجيد.

- آرستراتنج، كارل (١٣٨٥هـ.ش). *تاريخ الفكر الألوهى*، طهران: أكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية. بامفورد باركز، هنرى (١٣٨٠هـ.ش). *الآلهة والبشر*، طهران: القصيدة.
- بى واريز، فيليب (١٣٨٥هـ.ش). *موسوعة تاريخ الفكر البشرى*، نخبة من المترجمين و المنقحين، طهران: سماء.
- تقى زاده، سيد حسن (١٣٨٢هـ.ش). *معرفة مانى، اشراف ايرج افشار*، طهران: قومس.
- جان ناس (١٣٥٤هـ.ش). *تاريخ الأديان*، الطبعة الثالثة، نشر بيروز، طهران.
- جعفرى، محمد تقى (١٣٦٢هـ.ش). *تفسير نهج البلاغه*، طهران: الثقافة الاسلاميه
- رضى، هاشم (١٣٤٣هـ.ق). *الديانة القديمة الإيرانية منذ ظهور زرتشت*، طهران: مؤسسة نشر آسيا.
- روجه جارودى (١٣٦٢هـ.ش). *معرفة فكر هينغل*، طهران: مؤسسة نشر آگاه.

- صباغ، عماد، الأحناف (د.ت). *دراسة في الفكر الديني التوحيدي في المنطقه العربيه قبل الإسلام*، نشر محدود، جامعة الأزهر.
- طباطبائي، سيد محمد حسين (١٣٦٣ ه.ش). *الميزان في تفسير القرآن*، قم: مؤسسة النشر العلمي و الثقافي.
- غرر الفصاحة (١٣٨٨ ه.ش). *مؤسسة النشر لإمام العصر (عج)*.
- فشاهي، محمدرضا (١٣٥٤ ه.ش). *مدخل إلى الفكر في العصور الوسطى*، طهران: نشر غوتنبرج.
- فوكو، ميشال (١٣٨٢ ه.ش). *معرفة جذور الفكر*، طهران: نشر جامعة طهران.
- المجلسي، محمدباقر (٣٦٩ ه.ش). *بحار الأنوار*، طهران: دائرة النشر الإسلامية.
- مطهرى، مرتضى (١٣٥٠ ه.ش). *أسباب التوجه نحو المادية*، مشهد: طوس.
- مطهرى، مرتضى (١٣٦٩ ه.ش). *مجموعة المؤلفات*، طهران: صدرا.
- نهج البلاغه (١٣٧٧ ه.ش). *طهران: نشر و پژوهش فروزان روز*.
- نهج الفصاحة (١٣٨٥ ه.ش). *طهران: أكاديمية العلوم الإنسانية و الدراسات الثقافية*.
- ويكيبيديا، الموسوعة العلمية الحرة.